إنسانية واحدة.. و بداية أم نهاية؟

تعاليم المعلم برمهنسا يوغانندا
الترجمة: محمود مسعود

إن فكرة وجود إنسانية واحدة وثقافة واحدة تضع أمامنا هدفاً عملياً وتحتم علينا بذل المجهود وعمل كل ما يلزم لتحقيق ذلك الهدف.

وعبارة "إنسانية واحدة" تعني الإنسانية بكل ما فيها من أعراف وأعراق وأديان ولغات وتيارات وتطورات. فالإنسانية هي واحدة في جوهرها وطموحاتها وفرصها المتاحة، مثلما هي واحدة في إنجازاتها المادية والعقلية والأدبية والجمالية والروحية.

لا مناص اليوم للعقل العلمي من الإعتراف بأن عملية التطور لم تتوقف بل هي جارية على قدم وساق. ومع أن هذا التطور لا يمكن ملاحظته بسهولة من الناحيتين الفيزيقية والفسيولوجية في الجسم البشري، لكن من الواضح أننا لسنا مجرد كائنات حية بأجسام وطاقات حيوية. فنحن أيضاً كائنات عقلية.

فمن العالَم البيولوجي دخلنا العالَم النفساني.

الكثير منا يعيش في عالم الأفكار والتصورات والطموحات والإدراك الحسي أو الحدسي، وقد يكون هناك من يعيش في عالم النشوة الروحية التي يختبرها اليوغيون والصوفيون.

العملية تبدو منطقية لأننا كائنات واعية وعلى دراية بوعينا ولنا القدرة على التعامل مع ما ندعوه ضميراً. وهذا يعني أننا شركاء في تطورنا الطبيعي المتواصل.

إنها مغامرة جديدة وفريدة من نوعها، لكنها مغامرة يدعونا إليها كياننا بأسره لأنها ستقرر ماهيتنا وما سنكون عليه.

إن قطعة الصوان هي عمل من أعمال الطبيعة، لكن شحذها واستعمالها كأداة هو جزء من ثقافة الإنسان.

المغارة هي كهف طبيعي، لكن صور الحيوانات المنحوتة على الصخور داخل الكهوف هي فنٌ وجزءٌ لا يتجزأ من ثقافة الإنسان.

فأينما وحيثما استعمل الإنسان ملكاته وقواه المتعددة.. بدنية أو نفسية أو أدبية أو جمالية أو روحية لعمل أو اختبار شيء ما، يظهر قدرته على التفاعل مع الحضارة والثقافة العالمية. ولولا تفعيل تلك الطاقات لبقيتْ هاجعة كما في الطور الحيواني.

هذه المقدرة كامنة في الإنسان. ومهما كانت طبيعة تلك الثقافة وأينما وُجدت تبقى ثقافة إنسانية وتراثاً مشتركاً للبشرية جمعاء.

وإذ نقرر هذه الحقيقة بأن الإنسانية واحدة وتراثها مشترك، لا بد أن ننقب في ماضينا وحاضرنا ونستشرف أيضاً مستقبلنا.

لقد بلغ الإنسان مرحلة النضج حيث يمكنه تطوير نفسه والنهوض بها إلى مستويات أرق وأرقى.

ولا يمكن له أن يظل قانعاً في الجري مع تيار الزمن. فهو كائن مسؤول على هذا الكوكب الأرضي.

وبخلاف الكائنات الأخرى، فهو ليس واعياً وحسب، بل يمتلك الوعي بالذات وهو أيضاً على دراية بوعيه الذاتي. وباختصار إنه يعلم ويعلم أنه يعلم. لا يمكنه أن يتذرع بالجهل لأنه يعرف ما هو قادر عليه فيما لو أراد أن يفعل ما يريد فعله.

إن لم يفعّل إرادته فالذنب ذنبه والضعف ضعفه.

قد يقول أنه حتى عندما يستخدم إرادته لا يمتلك مع ذلك القدرة على تحقيق ما يريده. لكن تلك حجة واهية لأنه عندما يريد وينوي سيتمكن من أيقاظ قوى هاجعة وطاقات بانتظار التوظيف السليم. وعلى قدر الإرادة التي يملكها يحصل على القوة التي يحتاجها.. (حقاً أن على قدر أهل العزم تأتي العزائم...)

هذا ما يُتوقع فعله من الإنسان المسؤول.. وسيفعله ما دام يؤمن بأنه واجب مقدس يستحق الإهتمام والإنجاز..

ما من شك في أن الإنسان في تطورٍ متواصل. فالله أو الطبيعة أو القوة الكونية أو ما يرغب الإنسان في اعتباره أصل الحركة ومنبع الطاقة في الوجود لا يتوقف عن العمل للحظة واحدة.

وفي هذه المرحلة من نشوء الإنسان فإنه مدعو للمشاركة في تطوره الذاتي لمساعدة الطبيعة بدلا من الهبوط انحداراً من شلال النشوء والإرتقاء كقرمة من الخشب.

إن فكرة إنسانية موحدة ليست من نسج الخيال بل من واقع الحال. فكلما تطورت وسائل المواصلات والإتصال والعلوم والتقنيات تتوسع مدارك وعينا بالتوازي مع اكتشافاتنا فنشرع بمحبة كل ما يقع وراء حدود بيئتنا الضيقة ونعمل جاهدين على التواصل مع غيرنا بكل الوسائل المتوافرة. ولا عجب بأننا اليوم على معرفة بكل ما يحدث للناس في هذا العالم حتى في أبعد الدول وأكثرها تخلفاً.

ومع هذا التواصل الحيوي بين أبناء الإنسانية الواحدة يحدث التعاطف وتتقارب الرؤى وتختزل المسافات ويصبح العالم قرية واحدة (بحسب ما نلمس إرهاصاته.. بل ونختبره في عصرنا هذا.

بداية أم نهاية؟

على مدى السنين والشهور بحثت بحثاً دقيقاً متواصلا إلى أن توصلت إلى معرفة سر الحياة والموت وما إذا كانت النفوس تعود إلى التجسد بعد مفارقتها أجسادها البالية.

بالنسبة لمعظم الناس تلك تبدو فكرة ليس أكثر، أو محض اعتقاد نظراً لانعدام البرهان.

لكنني لا أتحدث من منطلق الإعتقاد وحسب، إذ وجدت الدليل على الحياة بعد الموت وعلى العودة إلى التجسد. ولذلك أستطيع أن أؤكد هذه الحقيقة من تجربتي الشخصية.

ومع أن الإنسان ينظر إلى الموت برعب وحزن، فإن الذين سبقونا إلى تلك العوالم السعيدة يعتبرون الموت تجربة رائعة من الفرح والسلام والحرية.

ما أروع الحياة بعد الموت! إذ لا ضرورة لنتع هذه الحزمة الثقيلة من العظام مع كل ما يرتبط بها من آلام ومشاكل. النفوس في العالم الأثيري تحتفظ بوعيها وتسعد بتحررها من كل العوائق الفيزيقية المادية.

عند الموت ينسى الإنسان محدوديات الجسد المادي ويدرك كم هو حر طليق. هناك إحساس بالخوف لبضعة ثوان :الخوف من المجهول.. الخوف من شيء غير مألوف بالنسبة لوعي الإنسان. لكن بعد ذلك تختبر النفس معرفة عظيمة وتحس بفرح غامر للإنعتاق من كل القيود، لا سيما الإحساس بالوجود خارج القفص الجسدي.

ليس هناك ما يدعو إلى الخوف، لإنه ما لم يمت الإنسان فهو ما زال حياً، وعندما يموت تكون النهاية ولن يبقى عندئذ من شيء يستحق الخوف.

الموت تجربة عامة: تغيّر يمر به كل إنسان.. فلنعزّ أنفسنا بأن الموت يحدث للجميع.. وأنه بمثابة فترة استراحة من أعباء الحياة وهمومها .

الموت تجربة ممتعة، ولكن يجب أن لا يتمنى الإنسانُ الموتَ هرباً من دروس الحياة القاسية في مدرسة الحياة هذه. فالهروب خطأ. ومهما كانت ظروف الإنسان على هذه الأرض يجب أن يواجهها بجرأة وشجاعة. وعندما ينجح في مواجهته الحياة هنا يكون الموت بمثابة جائزة مستحقة عن جدارة.

الموت ليس نهاية، بل تحرر وقتي يمنحه قانون العدل الإلهي (الكارما) للنفوس عند أدائها وظائفها خير أداء، أو عندما ينهك الألم قواها فلا تقوى على تحمل العيش ومواصلة السير.

الموت بالنسبة للمتألمين (والمتأملين) هو بمثابة ابتعاث من عذابات الجسم الأليمة إلى حالة من السكينة واليقظة والسلام. بالنسبة لكبار السن هو بمثابة معاش (تقاعد) مستحق بفعل العمل والكفاح المتواصل على مدى سنين طويلة. وبالنسبة للجميع هو بمثابة راحة مرحّب بها. لكن أثناء تلك الراحة تستيقظ الرغبات المتناومة التي لم يتم تحقيقها أثناء الوجود الأرضي فتشعر النفس بضرورة تحقيقها. وعندما تصبح تلك الرغبات قوية بما فيه الكفاية تنجذب النفس إلى الأرض فتتجسد بالولادة من جديد.

إن ذاتنا الحقة أو روحنا هي خالدة في جوهرها. فقد نهجع لفترة بفعل ذلك التغيير الذي يدعى موتاً ولكن مستحيل أن تفنى هويتنا الذاتية. إننا موجودون ووجودنا هذا أبدي.

الموجة تأتي إلى الشاطئ ثم تعود إلى البحر دون أن تفقد جوهرها، بل تتوحد مع المحيط أو تعود ثانية على شكل موجة أخرى .

الجسم بزغ من المحيط الكوني وسيتلاشى لكن جوهر الروح الذي يقطن الجسد لن ينعدم طوال الأبدية. لأن فناء ذلك الجوهر الإلهي هو أمر مستحيل.

لماذا نبكي عندما يموت أحباؤنا؟ لأننا نشعر بالحزن لخسارتنا. إن فارَقنا أحباؤنا للدراسة في مدارس أفضل من مدارس الحياة فينبغي لنا أن نفرح لهم بدل الحزن عليهم. فالحزن على النفوس المفارقة يُبقي تلك النفوس مشدودة إلى الأرض بحبال أحزاننا مما يعيق تقدمها في مستويات أعلى وآفاق أرحب.. مستويات الروح وآفاق الله الواسعة.

الموت يأتي للعاملين بجد واجتهاد في الحياة كترقية إلى حالة ومرتبة أعلى. وبالنسبة للفاشلين يأتي أيضا ليمنحهم فرصة جديدة في بيئة جديدة لإعادة الكرّة وإحراز النجاح . غير المستنيرين يبصرون في الموت جداراً سميكا يواري للأبد أصدقاءهم وأعزاءهم وراءه. أما المتحررون من التعلقات والرغبات الأنانية.. الذين يحبون الآخرين كتعبيرات بشرية لله، يدركون أنه في الموت يعود أحباؤهم إلى الله ليتنفسوا في فضائه الرحب أنسام الحرية والسعادة النقية.

يجب أن نرسل أفكار المحبة للمفارقين وأن نسأل الله أن يمتعهم بالسلام والراحة في عالمهم الجديد. هذا يمكن أن نفعله بالتركيز العميق على النقطة ما بين الحاجبين وإرسال رسالة روحية إلى أحبائنا في العالم الآخر. كما يجب أن نبعث بأفكار التشجيع والمحبة إليهم. فإن كانت رسائلنا متواصلة لا بد أن يشعروا بها ويبادلونا نفس المشاعر. إذ هم بدورهم يفكرون بنا ويشتاقون لنا مثلما يفرحون كلما تذكرناهم وبعثنا لهم برسائل الحب والشوق.

وسيأتي اليوم الذي يجمع الله به شمل المحبين، وسنعرف عندئذ أن هذه الحياة البشرية ليست كل ما في الوجود، بل هي مجرد حلقة في سلسلة العلاقة الأبدية التي لا تنقطع مع أصدقائنا وأحبتنا في هذه الحياة وما بعدها.

والسلام عليكم

المصدر: كنوز شرقية ـ مجلة معرفة الذات